النقد الأدبي القديم ومقومات الشعر
عند حازم القرطاجني(684هـ)

الطالب الباحث: بوهني بن عيسى — الأستاذ الدكتور: بن يمينة رشيد

مخبر الخطاب الحجاجي — مخبر الخطاب الحجاجي

جامعة ابن خلدون ـ تيارت ـ الجزائر — جامعة ابن خلدون ـ تيارت ـ الجزائر

لقد بقي الشعر العربي أمدا بعيدا في حالة من الركود والرتابة بسبب أُبُوَّةِ وهيمنة نظرية عمود الشعر، وما نتج عنها من جدل في قضايا اللفظ والمعنى، والصدق والكذب، وغيرها من الرؤى التي لم تتجاوز المعيارية إلى الأبعاد والتصورات الفلسفية، التي يمكنها توسيع المساحة للمجال الإبداعي، من أجل النهوض بالشعر إلى مستويات فكرية وإبداعية، يمكنها أن تحقق المنتظر الممكن، وتنعكس بشكلٍ إيجابيّ على المتلقي الذي يُعَدُّ محور وغاية الخطاب الشعري. لكن حازما استطاع أن يقوم بهذه المهمة المُتَخَلَّى عنها، وأن يُقْحِمَ البعد الفلسفي في حِمَى الشعر العربي، بالخصائص الذاتية لهذا الشعر من محاكاةٍ، وتَخْيِيلٍ، وتَخَيُّلٍ، وتعجيبٍ، وإغرابٍ، وغيرها من العوامل التي عمقت النظرةَ الفلسفيةَ في تَشَكُّلِ النص الشعري العربي. حيث كان هذا الجهد بمنزلة إرهاصات أولية لظهور القصيدة الشعرية العربية الحديثة، التي تعالج القضايا الفكرية المجردة، كمسألة الحرية والحضارة والثقافة والتاريخ والمجتمع، باعتبارها المسائلَ المهمةَ في حياة الأمم والشعوب.

الكلمات المفتاحية: المتلقي؛ مفهوم الشعر؛ المحاكاة؛ التخييل؛ التخيل؛ الإغراب؛ التعجيب؛ الصدق؛ الكذب؛ الإقناع؛ الإلذاذ؛ التأثر؛ الانفعال.

Ancient Literary Criticism and the Elements of Poetry by Hazem Al-Qartajani (684 AC)

Abstract: The Arab poetry has long remained in a stagnation and monotony state due to the paternity and hegemony of the poetry column theory, and the resulting controversy in the word and meaning issues, honesty and falsehood, and other visions that did not exceed the normative to philosophical dimensions and perceptions. The latter can expand the space for the creative field in order to promote poetry to the intellectual and creative levels. It can achieve the possible expectation and be reflected positively on the recipient who is the pivot and the purpose of the poetic discourse. However, Hazim

تاريخ تسليم البحث: 24 جانفي 2018.

تاريخ قبول البحث: 19 ماي 2018.

was able to carry out this abandoned mission, and to penetrate the philosophical dimension in the fever of Arabic poetry, with the subjective characteristics of this poetry of simulation, imaginary, imagination, wonder, surprise, extraneous and other factors that deepened the philosophical outlook of the Arabic poetic text formation. This effort was as initial harbingers of the emergence of the modern Arabic poem, dealing with abstract intellectual issues such as freedom, civilization, culture, history and society as important issues in the lives of nations and peoples.

keywords: poet, poetic process, recipient, concept of poetry, poetry ingredients, psychological factor, behavior, simulation, imaginary, imagination, extraneous, wonder, honesty, falsehood, persuasion, tastefulness, impact, emotion

تمهــيد:

يُعَدُّ عملُ حازمٍ في المنهاج، بمثابة "استنباط قوانين كلية تستوعب "الشعرية" في الشعر العربي، وفي الوقت ذاته، إفادةً من النتائج الفلسفية لأرسطو، والفارابي، وابن سينا"[1]، والنقاد العرب القدامى، كالجاحظ وقُدَامَةَ بن جعفر وابن طباطبا وعبد القاهر الجرجاني، وإن خالف حازمٌ عبدَ القاهرِ في بعض الأفكار والتصورات النقدية في مسألة النظم. سبيلُه في ذلك، منهجٌ معرفيٌّ يرمي إلى تأصيل قواعد العملية الشعرية، وكيفية إنتاج النص الشعري، مركزا في ذلك على ثلاثية التواصل اللغوي: الشاعرِ، والعمليةِ الشعرية، والمتلقي لهذا النص الشعري (الخطابِ)، وفي هذه النقطة بالذات تميز حازم عن باقي النقاد العرب، الذين لم يسبقْ أن اتفق اهتمامُهم على هذه الثلاثية مجتمعةً، واقترب بذلك من الفكر النقدي الغربي الحديث. كما هو الشأن عند رومان جاكبسون وغيره من النقاد. ولكن ما مفهوم الشعر عند حازم ؟ وما المقوماتُ التي يقوم عليها النص الشعري، عنده؟

إن المتتبع للتفكير النقدي عند حازم القرطاجني، وتصوره للشعر، يجد العامل النفسي السيكولوجي حاضرا بقوة في هذا التفكير، فالشعر **"عند حازم إثارة تخيلية لانفعالات المتلقي، يقصد بها دفعه إلى اتخـاذ وقفة سـلوكية خاصة، تؤدي به إلى فعل شيء، أو طلـبه، أو اعتقاده، أو التخلي عن فعله. هذه الإثارة تحدث فعلها لدى المتلقي فيـما يســميه علم النفس القديم "قوى الإدراك الباطن"**[2]". وهذا الحضور البارز للعامل السيكولوجي عند حازم، لا يتنافى ومقصودية النقد الأدبي بوجه عامٍّ؛ إذْ **أنَّ** الغاية التي يرمي إليها جمهور النقاد عبر العصور، ولدى جميع الأمم، هي وظيفية أسلوب النص الشعري ولغته الراقية، "في إنجــاح العملية الشعرية المعــقدة، والتي تهدف إلى توصيل الخطاب الأدبي إلى مرحلة التأثير [3]" في وجدان وعقل متلقفي هذا الخطاب، بصورة مقبولة ولو نسبيا، وفق وسيلتي المحاكاة والتخيل، وبشروط **الإلذاذ والإمتاع** والإقناع المتعارف عليها في الشأن النقدي، مع الأخذ بعين الاعتبار تلك الفروق والاختلافات الملابسة لمذاهب النقاد واتجاهاتهم، وتصوراتهم الفكرية والفلسفية؛ لذلك يقول حازم في إضاءةٍ من الإضاءات: **"والارتياح للأمر السارّ، إذا كان صادرا عن قاصد**

لذلك أرضى، فحرك إلى المدح. والارتماضُ للأمر الضار، إذا كان صادرا عن قاصد لذلك أغضب، فحرك إلى الذم. وتحرك الأمور غير المقصودة أيضا من جهة ما تناسب النفس، وتسرها ومن جهة ما تنافرها وتضرها، إلى نزاع إليها، أو نزوع عنها، وحمد وذم أيضا، وإذا كان الارتياح لسارٍّ مستقبل فهو رجاء، وإذا كان الارتماضُ لضارٍّ مستقبل كانت تلك رهبة، وإذا كان الارتماض لانقطاع أمل في شيء كان يؤمل، فإن يُنحَى في ذلك منـحى التصبر والتجمل سُمِّيَ تأسيا أو تسليا، وإن نُحِّي به منحى الجـزع والاكتراث سمي تأسفا أو تندما، ويسمى استدفاعا لمخوف المستقبل استلطافا..."[4] ومما سبق يتضح أن مدار بواعث العملية الشعرية كلها، إنما هو تلك التأثرات والانفعالات المتباينة ، والتي تحرك سرائر النفوس ودواخلها، إما بالمسرة، وإما بالألم؛ لذلك لا نجد غرابة إذا وقفنا على اهتمام حازم "بالعوامل النفسية التي تؤدي وظيفة مهمة في تشكيل الإبداع وإنتاجه "[5].وإثر هذا التفاعل المعقد، بين النفس وهذه البواعث؛ تتألف المعاني واللغة الشـعرية في قالب يصوغه أمراء الكلام من الشعراء.

إن المزج بين الثقافتين العربية واليونانية، واضح في تفكير حازم وتصوره لمفهوم الشعر "**بشكل لم يتح لناقد عربي على هذا المستوى**[6] " يظهر ذلك من خلال تعريفه للشعر، حيث يقول: "**الشعر كلام موزون مقفى، من شأنه أن يحبب إلى النفس ما قصد تحبيبه إليها، ويكره إليها ما قصد تكريهه، لتحمل بذلك على طلبه أو الهرب منه، بما يتضمن من حسن تخييل له، ومحاكاة مستقلة بنفسها، أو متصورة بحسن هيأة تأليف الكلام، أو قوة صدقه، أو قوة شهرته، أو بمجموع ذلك، وكل ذلك يتأكد بما يقترن به من إغراب، فإن الاستغراب والتعجب حركة للنفس إذا اقترنت بحركتها الخيالية قوي انفعالها وتأثرها، فأفضل الشعر، ما حسنت محاكاته، وهيأته وقويت شهرته أو صدقه، أو خفي كذبه، وقامت غرابته."**[7]

فصدر الكلام في هذا التعريف، لا يكاد يختلف عن التعريف الذي قعده قدامة بن جعفر للشعر في [**نقد الشعر**] من جهة، لكنَّ التصور الفلسفي الأرسطي يبدو بارزا بقوة في هذا التعريف من جهة أخرى؛ لذلك يرى حازمٌ أن أحسن الشعر، ما كان أساسُه التخييلَ والمحاكاةَ والإغرابَ والتعجيبَ. فأما المحاكاة؛ فلأنها لبُّ الشعر وقوامه، وعلة التحسين والتقبيح. وأما التخييل؛ فلأن حازما يرى أنَّ غاية الشعر ومهمته التأثيرُ في المتلقي، لا التعبيرُ عن القائل (التخيل)، وذلك بما يُحْدِثُ من انفعـال في نفس المتلقي؛ بسبب اجتماع التعجيب والتخييل[8]. هذا العامل السيكولوجي الذي ينوه عليه حازم في الكثير من المواطن النقدية من كتابه [المنهاج]، ويجعله النتيجة الحتمية لأيِّ عملية شعرية، ومحورا لأي تخيُّلٍ. وبواعث الشعر التي

تؤدي إلى تأثرات وانفعالات مختلفة في النفوس، هي التـــجارب الإنسانية التي تُعَدُّ محـركاتٍ لما في سرائر النفوس، مما يسرها ويؤلمها، وهي العاملُ الأساسُ في حسنِ التخيل لدى الشاعر، وتجويدِ المعاني، والمهارة في نظمها، في صورة نص شعري، يحسن أن يكون خطابا أدبيا تواصليا بين الشاعر و**الجمهور**، كما يصطلح على ذلك حازم في المنهاج.

مقومات الشعر عند حازم القرطاجني:

لما كانت المحاكاة، والتخييل، والصدق، والإغراب، هي الأسس التي يقوم عليها الشعر في التفكير النقدي لدى حازم؛ كان أفضلُ الشعر: **"ما حسنت محاكاته وهيئته، وقويت شهرته أو صدقه، أو خفي كذبه، وقامت غرابته** [9]" وأردأ الشعر ما كان على العكس من ذلك.

والتأثير في المتلقي سببه المحاكاةُ؛ لأن النفوس - كما يقول حازم - إنما تلتذ بالمحاكاة أكثر مما تلتذ بالشيء نفسه، وإن كانت اللذة حاصلةً في الحالتين؛ فإنها مختلفة في طبيعتها، فاللذة في الحالة الأولى نابعة من الشيء نفسه، أما في المحاكاة؛ فإنها نابعة من التعجيب والتخيل، ويمثل حازم لذلك بمنظر الشمعة أو المصباح على صفحة الماء وهو صاف، أجمل بكثير مما هي عليه في الواقع؛ لحدوث فروق جديدة بين الضوء وصفحة الماء، وكذلك؛ لأن هذه الصورة أقلُّ تكرارا من رؤية الشمعة نفسها، والنفس إلى ذلك أميل ذهابا مع الاستطراف[10]

ثم إن الشاعر لا يقل أهمية عند حازم في تشكل العملية الشعرية، باعتباره محورا رئيسا في ذلك، وفق شروط موضوعية، تجعله قادرا على الإبداع، وتأليف النص الشعري، تلك الشروط تتعلق بالبيئة التي يعيشها الشاعر، وبالعوامل النفسية التي تعمل على تحريك شعريته، وتدغدغ عاطفته بالشجى واللذة والأمل والألم. وهنا نستطيع أن نقول **أن:** حازما قد توصل إلى هذه الوظيفة الشعورية، التي نص عليها جاكوبسون بمصطلح الوظيفة الانفعالية والمتعلقة بالباث (الشاعر).

ويجمل حازم هذه الشروط فيقول: **"لما كان الشعر لا يتأتى نظمه على أكمل ما يمكن فيه، إلا بحصول ثلاثة أشياء، وهي: المهيئات، والأدوات، والبواعث...** [11]" ثم يفصل **في ذلك،** حيث يجعل هذه الشروط نوعين: عوامل خارجية، وأخرى داخلية: فأما الخارجية فهي:

1- **المهيئات:** وهي ما تعلق بالبيئة الجميلة والهواء المعتدل والمطعم الطيب، ومخالطة الفصحاء، وحفظ كلامهم، كالذي كانت تفعله العرب بأبنائها وشعرائها، وهذا ما أُثِرَ عن الحطيئة الذي كان راوية لزهير الذي بدوره كان تلميذا لأوس بن حجر. **"فالشعر لا يُكْتَفَى فيه بالطبع، ولا بمعرفة القوافي والأوزان، وإنما لابد للشعر مع ذلك من دربة ومران، وتعليم وإرشاد، لم تكن العرب تستغني في قولها الشعر، ونظمها القصائد التي كانت تسمى أسماط الدهور، عن التعليم والإرشاد إلى كيفيات المباني التي يجب أن يوضع عليها الكلام،**

والتعريف بجوانب الحسن فيه، والتنبيه على الجهات التي منها يُداخل الخللُ المعانيَ، ويقع الفساد في تأليف المعاني والألفاظ. [12]"

2- **الأدوات:**وتتمثل في العلوم التي تتعلق بالألفاظ، كاللغة والنحو والبلاغة؛ لأن ذلك كله "مُعين ضروري في ميزان التعبير.[13] وأما العلوم التي تتعلق بالمعاني، فهي سائر العلوم الإنسانية، التي لها صلة بالمواهب والأحاسيس، والعواطف والمشاعر، كل ذلك ينمي الفكر والخيال، ويخصب الابتكار، ويزيد من الإبداع.

3–**البواعث**: وأما البواعث فهي الدوافع النفسية كالإطراب لحنين وغيره، والآمال كالتطلع لمؤمل مستقبل، والاستشراف لعطاء، أو بلوغ منازل، أو تحقيق مقاصد، وما أشبه ذلك.

أما العوامل الداخلية، فيرى حازم أنه لا بد من توفر شروط أخرى لدى الشاعر؛ كي يتهيأ له الإبداع الشعري، هذه الشروط تتعلق بالطبع والملكة الشعرية، أو ما يصطلح عليه بـ: "الطبع الجيد" وقد أجملها حازم في ثلاثة أشياء، سماها بالقوة الحافظة، والقوة المائزة، والقوى الصانعة.

1 - القوة الحافظة: وهي أن يتناسب خيال الشاعر مع كل غرض من أغراض الشعر، بصفة طردية، وعلى الفور، بحيث " **يرى صور الأشياء مترتبة فيها على مثال ما وقعت عليه في الوجود،**"[14] فإذا صورها في شعره، فكأنه ينقل ذلك على الحقيقة، وجاءت الأفكار والصور مترتبة متناسقة، حتى كأن الشاعر ليختزن خياله في هذه القوة، كما يختزن الناظم درره وجواهره، يستثمرها وقتما شاء، وكيفما شاء. فتقع صوره وخيالاته في مواضعها المختارة من قبله، بكل يسر واعتيادية، فلا تذهب صور المدح إلى الغزل، ولا صور الفخر إلى الرثاء. ولا يكون الشاعر ذا خيال معكر، أو تصور سقيم، تشتبه على خياله صور الأشياء، وتختلط عليه التصوراتُ، وإنما يأتي كلامه على ما يقتضيه حال المتلقي، ومقام الكلام.

2 - القوة المائزة: وهي أن يكون الشاعر قادرا على تمييز العلاقات بين الألفاظ، متمكنا من ترتيب المعاني الذهنية، ليكون ما ينتجه من كلام شعرا يذهب بالألباب، ويجلب العقول.

3 - القوى الصانعة: وهي التي يستطيع بسببها الشاعر أن يربط بين أجزاء الألفاظ والمعاني، فيتشكل النص الشعري في شكله الخارجي (النظم) وشكله الداخلي (الأسلوب).[15]

وهكذا "**فصناعة النص الشعري عند حازم تعتمد على الفكر، والخيال، وحسن التصرف في الأساليب، وجمال التعبير بالعدول والانزياح،**[16]" إخراج اللفظ **على غير** مخرج العادة.

إذن، لقد كان بين يدي حازم، تراثٌ ضخمٌ في البلاغة والنقد تتجاذبه رؤيتان تتمثلان في فكرة التخييل ومفهوم النظم، ولقد استطاع أن يمزج بين النظرية **الأرسطية الهلينية**، ونظرية النظم الجرجانية العربية، لذلك تفرد في كتابه [المنهاج] عن سائر النقاد العرب السابقين له، ولا شك أن هـناك عواملَ شتى دفعت حازما إلى أن يميل إلى الرؤية النقدية للفلاسفة، ذلك لاعتباره حفيدا وفيا ومخلصا، لأستاذه أبي علي الشلوبين، الذي تتلمذ بدوره على يد الفيلسوف الكبير، ابن رشد الأندلسي، في حقل النقد والتنظير لنظرية التخييل النقدية.

مراجع البحث وإحالاته:

1 ينظر، نظرية الأسلوب عند حازم القرطاجني، بن عيسى بطاهر-جامعة الشارقة - الإمارات العربية المتحدة- اتحاد الكتاب العرب، ص:88/57.

2 الصورة الفنية في التراث النقدي والبلاغي عند العرب، جابر عصفور، الطبعة الثالثة،1992، المركز الثقافي العربي، بيروت - لبنان – ص:298.

3 ينظر، نظرية الأسلوب عند حازم القرطاجني، ص:59.

4 منهاج البلغاء ص: 12/11

5 نظرية الأسلوب عند حازم القرطاجني، ص:90/89.

6 من قضايا التراث العربي النقد والناقد، فتحي أحمد عامر، منشأة المعارف الإسكندرية 1985 ص:336.

7 منهاج البلغاء وسراج الأدباء، أبو الحسن حازم القرطاجني، تحقيق: محمد الحبيب ابن الخوجة، الدار التونسية للنشر، تونس 1982.ص:71.

8 ينظر، أصول النقد العربي القديم، د. عصام قصبجي، منشورات جامعة حلب – مديرية الكتب والمطبوعات الجامعية – 1991 ،ص:239.

9 منهاج البلغاء ص:71.

10 ينظر، المصدر نفسه ص:126.

11 المنهاج ص:43/40.

12 المنهاج ص:26.

13 من قضايا التراث العربي النقد والناقد، فتحي أحمد عامر،ص:351.

14 المرجع نفسه، ص: 354.

15 نظرية الأسلوب عند حازم القرطاجني، ص:92.

16 ينظر، المرجع نفسه ص:91 .